

"الدَّرْسُ التَّفْسِيرِيُّ وَأَفَاقُ الاجْتِهَادِ الْمُنْهَجِيِّ" (*)

إعداد: الدكتور إبراهيم إمام
أستاذ الدراسات القرآنية والمناهج التفسيرية
كلية أصول الدين - تطوان

(*) مقال علمي معد للمشاركة في مجلة كلية أصول الدين بتطوان برسم الموسم الجامعي: 2016-2017م

لا تحفى على الباحثين والدارسين للعلوم الشرعية - على الخصوص - مكانة "الدرس التفسيري" ضمن بناء هذه العلوم وصرحها،¹ وذلك لصلته المباشرة بكلام الله عز وجل، ولاعتبار أثر وظيفته على هذا الكلام بيانا وإيضاحا؛ ومن أجل هذا تضافرت جهود علماء الأمة على العناية الفائقة بعلم تفسير القرآن الكريم بعينه، من جملة باقي علومه، جمعا، وتوثيقا، وتدوينا، واجتهادا؛² وما زالت هذه العناية متواصلة في نماء حركتها، وإطراد فعلها، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن القرآن الكريم الذي عليه مدار "الدرس التفسيري" "بحر لا تستنفد جواهره، وذو عجائب لا تستدرك بواطنه وظواهره، وذو عمق لا يبلغ آخره، وذو طول وعرض لا يقطع مزاحره".³

كما لا يخفى أن الكثرة الكاثرة من المؤلفات التفسيرية الضخمة - بمخطوطها ومطبوعها - التي تزخر بها المكتبة الإسلامية وغيرها من المكتبات العلمية العالمية، تعد دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على هذه المكانة السامقة للدرس التفسيري، وإن استمرار الاشتغال في منحاها، وتواصل التأليف في فحواها، بمناهج مختلفة، وأنظار متباينة، عبر الأجيال وإلى اليوم، لكفيل بترسيخ الاقتناع بهذه الحقيقة الدينية والعلمية والتاريخية والواقعية، مثلما هو حال كثير من الباحثين المتخصصين اليوم، الذين ولّوا وجوههم شطر هذا الدرس العلمي الرباني،⁴ حيث وهبوا مَهَجهم وأوقاتهم للتتقيب عن المؤلفات التفسيرية المخطوطة المفقودة، والبذل في تحقيق نسخها الموجودة، والضبط لمضامين مؤلفاتها المطبوعة، والاجتهاد في دراسة "بلاغ الرسالة القرآنية"⁵ المشهودة.

وما دامت الحاجة أساسا إلى علم التفسير والاشتغال بدرسه تمتد بامتداد أصله (نص القرآن)، ولزوم التفقه من مضامين نصه، على أساس استلها مَراد رب العالمين، من كتابه المبين، للاهتمام إلى التي هي أقوم وأسلم؛⁶ فإن هذه الحاجة تتضاعف اليوم وتشتد، بسبب ما عليه حال الأمة ووضعها، فِتْنٌ شَتَّى ومَحْنٌ عِدَّةٌ، وما نجم عن ذلك كله من اختلال علاقة الأمة - ابتداءً - بكلام ربها، بله الاستمداد من روح هذا الكتاب ونوره وهداياته، بما يضمن صلاح حالها، ويحقق الاطمئنان على مآلها، على النحو الذي كان عليه حال حياة رجالها

¹ والله در الإمام البيضاوي - رحمه الله - على حسن عبارته، لما وصف هذا العلم في مقدمة أنوار تنزيله بقوله: "أعظم العلوم مقدارا، وأرفعها شرفا ومنارا... [بل] هو رئيس العلوم ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها" /ص23 (خطبة الكتاب).

² قال شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - في جامع بيانه: "إن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى؛ وإن أجمع ذلك لباغية كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسني الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد". المقدمة/ص: 26

³ درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي/ص: 4 (خطبة الكتاب).

⁴ مصدقا لقول الله تعالى في كتابه: "كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلَكِتَابِ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" سورة آل عمران الآية 78.

⁵ عبارة مقتبسة من عنوان كتاب: "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إِبْصَارِ لآياتِ الطريق" للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله.

⁶ استمدادا من قول الله تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هِيَ أَقْوَمٌ" سورة الإسراء الآية 9.

زمن الصدر الأول من فترة النبوة، و"حياة الصحابة"⁷، وما بعدها من القرون الخيرية، زمن الصفاء القلبي والذهني، والتواصل الإيماني والعلمي مع كتاب الله تعالى، وفهم مراد الله فيه، وإدراك مقاصده، والعمل بتعاليمه.

وفي ضوء هذه المعطيات المقدمات، تبدو أهمية الحديث عن موضوع "المنهج" في علاقته مع النص القرآني من جهة، وبالدرس التفسيري من جهة ثانية، وما يستلزمه هذا الحديث من الوقوف -أولاً- مع الضوابط الأساسية للاشتغال بتفسير النص القرآني، والكشف عن قيمة النظر المنهجي وأبرز تجلياته في الدرس التفسيري، مما يمهد للبحث في أهم دواعي الحاجة إلى الحديث عن عامل "الاجتهاد المنهجي" في هذا النطاق، ومدى أثره في هذا السياق،⁸ وهذا ما سينتظم البحث في تفاصيله من خلال المحاور التالية:

1- النص القرآني أساس الثراء المنهجي في الدرس التفسيري

1.1 ضوابط الاشتغال بتفسير النص القرآني

2.1 الدرس التفسيري ودعامة النظر المنهجي وتجلياته

2- الاجتهاد المنهجي وأثره في تفسير النص القرآني

1.2 الدرس التفسيري والتحديات المعاصرة

2.2 الاجتهاد المنهجي في الدرس التفسيري

3- خاتمة

⁷ هذه عبارة اشتهرت بكونها عنوانا لكتاب "حياة الصحابة" للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي (ت1384هـ).

⁸ ولا أدعي لمقال موجز كهذا أن يُفصّل القول في هذه القضايا الكبرى، وإنما هي محاولة لطرق باب البحث فيها، والتنبيه على أهمية دراستها.

1- النص القرآني أساس الثراء المنهجي في الدرس التفسيري

فمن المعلوم أن النص القرآني كلام غير عادي، لأنه روح من أمر الله،⁹ "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ
الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"،¹⁰ نزل به الروح الأمين على قلب محمد
ﷺ بلسان عربي مبين، بيانا للناس وهدى وموعظة للمتقين.

ويكفي في معرفة قيمة هذا القرآن، ما أخبر به رسول الله ﷺ وهو مجمع البيان، فمن تعريفاته له قوله عليه
الصلاة والسلام: "إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة
من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعجب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد".¹¹

وفيه أيضا قال عليه الصلاة والسلام: "ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر،
وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".¹²

وبقدر ما يفيد مضمون هذين الحديثين الشريفين في بيان مكانة النص القرآني، فإنه يؤصل لأبرز الخصائص
والمميزات التي يستفرد بها هذا النص الرباني على سائر النصوص، لا سيما النصوص البشرية التي تتسم بالنقص
والقصور، ويعتريها التقادم والثبور.

ومن أهم خصائصه¹³ ومميزاته، كونه النموذج الأسمى لكل نص، لثبوت تواتره إلى النبي عليه الصلاة والسلام
حفظا وكتابة، وثبوت صدوره عن الله جلت قدرته بطريق الإعجاز، ولاشتماله على كليات الشريعة، من
الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقائد، كوجوب الإيمان بالله وملائكته..، والأحكام الشرعية الوجدانية المتعلقة
بأخلاق الناس، وما يجب أن يكونوا عليه من الفضائل..، والأحكام الشرعية المتعلقة بما يصدر عن المكلفين
من أقوال وأفعال وتصرفات، سواء أكانت من العبادات أو المعاملات أو الجنايات، وسواء أكانت تتعلق
بالأفراد أو الجماعات؛¹⁴ وخطاب بهذا الوزن من قدسية مصدره، وبهذه المكانة من سمو معانيه، وبهذا الاتساع

⁹ اقتباسا من نص الآية الكريمة (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) سورة الشورى الآية 49.

¹⁰ سورة فصلت الآيتان 40-41.

¹¹ حديث أخرجه في التيسير بطوله عن الترمذي عن علي رضي الله عنه ببعض اختلاف في اللفظ.

¹² الحديث رواه البخاري ومسلم.

¹³ للاستزادة والإفادة في هذا الباب يراجع الكتاب القيم "خصائص القرآن الكريم" للدكتور فهد الرومي، فقد أبدع في جمع كثير من خصائص الخطاب القرآني.

¹⁴ لمعرفة مزيد من الخصائص و المميزات في هذا الصدد، أنه إلى أهمية الاطلاع على كتابين قيمين:

- الأول: القرآن الكريم طبيعته ووظيفته للدكتور الشاهد البوشيخي (منشورات جريدة المحجة).

- والثاني: بلاغ الرسالة القرآنية للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله (منشورات ألوان مغربية).

من شمولية تشريعاته، وبهذا الامتداد من تشعب أحكامه، وبهذه الرسالية من صلاح أحوال الناس، لا بد في فقهه من ضوابط وقيود، يتطلبها العمل في نطاق علم التفسير.

1.1 ضوابط الاشتغال بتفسير النص القرآني

لقد انصب اهتمام علماء الملة قديما وحديثا على نص القرآن، وتركزت جهودهم المتواصلة على مدارسته بقصد البيان، وازدهر التأليف في فقهه وبيانه على طرائق قديداً، استيعاباً لمبانيه، وتدوقاً لمعانيه، وانفعالاً بروحه، واستهداءً بنوره، للتمكن من تحصيل أسباب استنباط شرائعه وأحكامه، ووسائل تحديد مطالبه وتعاليمه، "ألا إن فهم المراد من القرآن هو السبيل إلى تطبيق القرآن، إذا لم يفهم القرآن ولم يعمل بالقرآن فكيف يتصور أي استفادة من القرآن؟!"¹⁵

والمؤسف، أنه في أعقاب ظهور "علم اللسانيات الحديثة"، وتفاقم موجة دراساتهما في العقود الثلاثة الأخيرة، برزت ثلة من المفكرين الذين اغترفوا من هذا العلم، وتشبعوا بحقائقه ودقائقه في محاضن الغرب أصلاً، وكما هو حال من تتلمذ عليهم تبعاً، فتوهوا القدرة الكاملة في أنفسهم على تملك الأدوات الفاعلة، والمهارات الحديثة في تحليل الخطابات النصية، وتناولوا على النص القرآني بدون استحياء، وتجاسروا على تحليل خطابه بواسطة تطبيق نظريات "علم اللسانيات"، وقواعد "علم السيميائيات" من غير تحفظ ولا تريث، ادعاء منهم أن هذا الخطاب—على خصوصيته—هو مجرد نص لغوي فحسب، يخضع منطوق بنائه وفقه معانيه إلى ما يخضع إليه أي نص لغوي من النصوص البشرية¹⁶، فتأولوا كثيراً من آياته المحكمات والمتشابهات على غير تأويلها، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وجنوا بذلك ما جنوا على فقه النص القرآني، بل على نابتة من أبناء الأمة السدج، الذين انبهروا بهذه الدراسات المسمومة، وانخدعوا بمضامينها وطرق تحليلها، فصار لديهم فقه كثير من الآيات هو موجب هذا الفقه المبثوث في هذه الدراسات المملوغة، "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِبِينَ"¹⁷

لذا وجب التنبيه بين الفينة والأخرى على الضوابط الأساسية التي لا بد للراغب في هذا القصد الشريف (طلب فقه النص القرآني) من تحصيلها، وهي بمثابة العواصم من قواصم الانصياع للقواعد اللغوية والإجراءات

¹⁵ مقتطف من مقال بعنوان "القرآن الكريم روح الأمة" للدكتور الشاهد البوشيخي، نشر بمجلة الهدى ع 2-1992.

¹⁶ يقول محمد أركون أحد زعماء هذه التلة: "وكننت قد بينت في عدد من الدراسات السابقة، أن مفهوم الخطاب النبوي يطلق على النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والأنجيل والقرآن كمفهوم يشير إلى البنية اللغوية والسيميائية للنصوص، لا إلى تعريفات وتأويلات لاهوتية عقديّة".

القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني/ص19،

ويؤكد على المعنى نفسه رفقته في الدرب، نصر حامد أبو زيد بقوله: "إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية، بمعنى أنها تنتمي إلى بنية ثقافية محددة، تم إنتاجها طبقاً لقوانين تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي". مفهوم النص/ص24.

¹⁷ سورة الأنفال الآية 30.

المنهجية فحسب، والمنقذة من ضلال تجاوز أصول التفسير وقواعده المقررة عند العلماء؛ ويمكن إجمالها في أربعة ضوابط وفق التصنيف التالي:

* الضابط الأخلاقي:

لا غرو أن مهمة فقه آيات وأحكام النص القرآني - تبييناً و بياناً - من المهام الجسام التي أناط بها الله تعالى رسوله الكريم، بنص قوله سبحانه: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ"¹⁸، وقوله جل وعلا: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا"¹⁹، لأنه عليه الصلاة والسلام كان على خلق عظيم؛ ولذلك لا يوكل أمر هذه المهمة النبوية إلا لمن كان مؤهلاً أخلاقياً في الدرجة الأولى، على قدر وافر من الإخلاص، والصدق، والتواضع، والصبر، والعدل... وغيرها من القيم المثلى، التي تناسب مقام كلام الله جل وعلا، "وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"²⁰.

وإذا كانت الأخلاق في نظر الإسلام أمراً مطلوباً لذاته، كما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق"²¹، فإن الإلحاح في طلب هذه الأخلاق الكريمة، وتمثلها بالنسبة لدارس النص القرآني ليعد من أوجب الواجبات وأكدها، لأن القرآن الكريم حجة الله على خلقه، وعهده على عباده، إليه يتحاكمون، وعن حكمه يصدرون²².

وإن أهم ما يجب التحلي به من هذه الأخلاق وفي هذا النطاق، تقوى الله تعالى، لأنها تفيد في مراقبة الله عند الاشتغال بتفسير أي كتاب الله، وتعين على استمداد الفتح من الله للفهم عن الله²³ كما تحمي الدارس لهذه الآيات المعجزات من مهالك الميولات العقلية، ومخاطر الانصياع وراء الدلالات اللغوية، وشر إجراءات الوسائط المعرفية، والاعتماد على ذلك لاغير؛ ومن عدم التقوى - وهي أساس الأخلاق وتاجها - ولو كان

¹⁸ سورة النحل الآية 44.

¹⁹ سورة الفرقان الآية 33.

²⁰ سورة الأنعام الآية 116.

²¹ حديث رواه البيهقي في سننه، والحاكم في مستدركه.

²² مصداقاً لقول الله تعالى "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَ؟ إِنْ أَرْضَيْتُمْ فَلَوْ أَقْرَضْنَا قَالَ فَبِأَشْهَادٍ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ".

الآيتان 80-81 من سورة آل عمران.

²³ "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" سورة القرة الآية 281.

على علم غزير بما يلزم في فقه تعاليم القرآن، تأوّل الفقه على سياق رأيه ومزاج هواه، ليحتج به على تصحيح غرضه ومبتغاه، فيزيغ بذلك عن الجادة ويضل عن الحق، "فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ"²⁴.

* الضابط العلمي:

لا شك أن من يريد الخوض في غمار دراسة النص القرآني لا بد له من أن يتزود - إلى جانب الضابط الأخلاقي - بالقدر الكافي من العلوم التي تعينه على اقتحام هذه العقبة وما أدراك ما العقبة، وتسعفه في استيعاب معاني القرآن، وتحليل مضامين آيه لاستنباط أحكامه واستلهاج حكامه؛ بحيث يكون الدارس مؤهلاً علمياً بما يلزم من أدوات الفقه الضرورية وشروطه الأساسية، من قدرة على الاستحضار لسائر القرآن، وما صح من الحديث النبوي والآثار، وغيرها من المصادر النقلية الصحيحة، متسعا في معرفة الأدلة من علم القراءات وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقصص وأصول الفقه.. وسائر العلوم التي يتوقف عليها هذا العمل العلمي المتميز؛²⁵ يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "والقرآن كلام الله، فهو يقول بلسان بيانه: هذا مراد الله من هذا الكلام، فليتثبت أن يسأله الله تعالى من أين قلت عني هذا؟ فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد"²⁶.

والحق، أن الدارس للنص القرآني كلما ازداد علماً وارتقى في مدارج سلاليمه كلما كان أقدر على الفقه الرصين، الواسع والنافع، لأن في فقه معاني النص القرآني مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً؛ وإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظر واتسع علمه. قال ابن أبي الدنيا: "وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. قال: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه"²⁷.

* الضابط اللغوي:

فالمفروض أن عمل الدارس الممارس لفقه نص القرآن - إضافة إلى الاهتداء بما سبق من الضوابط - يرتكز على توظيف الأدوات اللغوية التي تتمثل أساساً في: مفردات اللغة، وقواعد النحو، والإعراب، والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة.. وغيرها من القواعد اللغوية،²⁸ التي تخول معرفة أبنية ألفاظ القرآن الكريم، وخواص تراكيبه، وضروب معانيه، على نحو ما خاطب الله به العرب لما أنزل القرآن بلسانها، وبمقتضى ما يفهم

²⁴ سورة يونس الآية 32.

²⁵ أنظر تفصيل العلوم التي يحتاج إليها المفسر - على سبيل المثال - في كتاب الإتيان: السيوطي/397/2.

²⁶ الموافقات: الشاطبي/257/3.

²⁷ الإتيان: للسيوطي/399/2.

²⁸ يقول الإمام الشاطبي في بيان المقصود بعلوم اللغة العربية: "ولا أعني بذلك النحو وحده، ولا التصريف وحده، ولا اللغة ولا علم المعاني، ولا غير ذلك من أنواع

العلوم المتعلقة باللسان؛ بل المراد جملة علم اللسان ألفاظ أو معاني كيف تصورت" الموافقات/82/4/2.

من أساليبها في بيان مقصودها بخطابها: حقيقة ومجازاً، وتصريحاً وكناية، وعموماً وخصوصاً، وإطلاقاً وتقييداً..."، وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنائها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات".²⁹

بيد أن الأخذ بمطلق اللغة في هذا النطاق الخاص، والاعتماد على ما ألمَّ به الدارس من مباحثها، وأحاط علماً بقواعدها، لا يعفيه من مراعاة جملة من القيود اللازمة في فقه النص القرآني، لأن هذا النص ليس كلاً مباحاً لمن يتقن اللغة العربية فحسب، وإن نزل بلسان عربي مبين، "إذ لغة القرآن أسمى وأكبر من قواعد اللغة، ناهيك عن ضوابط المناهج المعرفية البشرية؛ فاللغة العربية وقواعدها بإزاء القرآن المجيد ولغته، لا تعدو كونها تحديدات نسبية إيجابية، لا غرو تقرب من القرآن، ولكن لا تقننه، لأن القرآن العظيم مطلق، والمطلق لا يقنن من خارجه".³⁰

وبالفعل، فألفاظ النص القرآني مختارة من لدن الله سبحانه، مترابطة ترابطاً عضوياً بعلم الله وإحاطته ترابطاً يجعلها تند عن قيد الزمان والمكان، فتصبح غير نهائية المعاني التي يمكن أن تندهق منها، والعمد إليها لطلب فقهاها في سياق نص خطابها، دون مراعاة هذا الضابط الأساسي في نطاق اللغة، بحسب الأفق المعرفي للإنسان القاصر يظلمها،³¹ "إذ البشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن البشر لم يكن قط محيطاً".³²

وقد تنبه ابن تيمية إلى هذا الأمر، وعاب على من يعتمد إلى تفسير القرآن بمجرد الاتكال على قواعد اللغة العربية دونما أي اعتبار، حيث قال: "قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.. (حيث)، راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام".³³

* الضابط المنهجي:

لا غرابة أن التحلي بقدر وافر من مكارم الأخلاق والفضيلة، وتحصيل نصيب كبير من المعارف والخبرة، والتضلع في علوم اللغة وقواعدها، كل ذلك ضروري في عمل الدارس للنص القرآني، والممارس لتفسير القرآن بقصد فقهاء؛ غير أن دور هذه الضوابط الثلاثة - على قوة فاعليتها - يبقى قاصراً وغير مكتمل في غياب ضابط أساسي وهو الضابط المنهجي، هذا الضابط الذي يتلخص في نسق من الأصول البيانية، والقواعد

²⁹ تأويل مشكل القرآن: ابن تيمية/ص: 12 (باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجال).

³⁰ مقتطف من موضوع: نظرية الترتيل في القرآن المجيد للدكتور أحمد عبادي نشر بمجلة رسالة القرآن/2ع_س 2005.

³¹ مقتطف من المقال السابق ويتصرف.

³² المحرر الوجيز: ابن عطية/1/39.

³³ مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية/ص: 84.

العلمية، والخطوات العملية، التي يسترشد بها المفسر ويتبرسها في تعامله مع النص القرآني، تدبرا وفقها، وتفسيرا واجتهادا؛ تفاديا للتخرص في مضامين نص هذا الخطاب من غير ما بينة، أو الاعتساف في فقهه دونما حُجَّة، إذ إن نجاح كل عمل وتمامه يبقى رهينا بمدى دقة وصواب منهجه؛ وقد أحسن في القول من قال: "إن المنهج بمثابة القلب في جسد الأمة، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.. ولذلك ينبغي أن يكون المنهج فوق كل أمر وفوق كل اعتبار، كما ينبغي أن يكون ركيزة لكل شيء".³⁴

ومن المؤكد أنه بقدر ضبط آليات المنهج في أي مجال معرفي، والتحكم في خطواته، واستيعاب قواعده، يكون مستوى الانطلاق في البحث والدراسة لأي موضوع - كيفما كان - كمّاً وكيفاً أيسر، والوصول إلى الغاية المنشودة من البحث فيه ودراسته أسلم، وتحقيق النتائج المستخلصة منه أدق.

وبالنظر إلى خصوصية النص القرآني، وطبيعة مكونات نصه مبنى ومعنى، فإن إدراج الحديث فيما يلي عن طرق تفسيره وأوجه بيانه، أمر لازم، وله ما يبرره علميا ومنهجيا.

2.1 الدرس التفسيري ودعامة النظر المنهجي وتجلياته

إن دعوة القرآن الكريم في غير ما موضع من آيه لقارئه للنظر والتدبر، والعلم والتفكير،³⁵ من أجل فهم معاني هذا القرآن، واستنباط أحكامه، وإدراك مقاصده، ثم تطبيق هديّه؛ هو بمثابة الأرضية الموطأة للنظر المنهجي، باعتباره دعامة قوية وركيزة أساسية في إقامة صرح الدرس التفسيري الذي مداره على "التبيين والبيان"، والقرآن كله بيانٌ وتبيانٌ، "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ"³⁶، فكيف السبيل لاستقاء بيان القرآن تفسيراً دون التوسُّل لذلك بما يلزم من القواعد المنهجية الشرعية، والضوابط العلمية المرعية، التي أرسى القرآن الكريم أسسها، وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بنيانها، وواصل الصحابة ومن بعدهم استكمال صرحها، توفيراً للأدوات الإجرائية تسييها لساحة القرآن ومساحته من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

والجدير بالذكر، أن نص القرآن اشتمل - من جملة ما اشتمل عليه - على "الآيات المحكمات والمتشابهات" التي تفرض بطبيعتها دلالتها ونوعية خطابها نظراً منهجياً دقيقاً للتمييز بينها، وتفسير مدلولها، وإرجاع الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات لتوضيح معناها؛ زيادة على أن هناك آيات تندرج ضمن ما يسمى ب: "تفسير القرآن بالقرآن"، سواء كان ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة؛ و"تفسير القرآن بالقرآن" من أقدم

³⁴ مقتطف من محاضرة علمية ألقاها الدكتور الشاهد البوشيخي على طلبة بوحدة القرآن والحديث بالسلك الثالث كلية الآداب - ظهر المهرز - فاس (شعبة الدراسات الإسلامية) (1998)

³⁵ كتحو قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَةَ أَنْ أُمَّ عَلَىٰ فُلُوبٍ أَفْعَالُهَا" سورة نجد الآية 24

³⁶ سورة النحل الآية 89

الطرق في الدرس التفسيري، وهي إحدى أقسام المنهج النقلي الذي ينبنى على نسق منهجي قائم على أصول وقواعد معينة، وخطوات علمية محددة، يسترشد بها المفسر ويتزسمها في تعامله مع نص القرآن: تدبرا وفقها، وتفسيرا واجتهادا، تفاديا للتخرص في مضامين النص القرآني من غير ما بينه، أو الاعتساف في التفسير وكيّ أعناق النصوص، لاسيما وأن مثل هذا التفسير - على الأقل - يتطلب إجراء منهجيا محضا، يتمثل في مقابلة آية أو آيات بأخرى، وجعلها شاهدا لبعضها على الآخر، ليستدل على هذه بهذه، من أجل الخلوص إلى معرفة مراد الله تعالى على النحو الذي يفيد السياق المنهجي القرآني، ويدل عليه تفسيرا وبيانا.

وما الجهود العلمية الوضيئة التي أبلى فيها المفسرون - جزاهم الله كل خير - البلاء الحسن - وما زالوا - في محراتهم التفسيرية، خدمة للنص القرآني، سواء في تفسيره كاملا أو أجزاء منه، إلا دليل ملموس على ثمره الجهود المنهجية المباركة، التي أسهمت في إعداد ثروة تفسيرية كثيرة، بمادة بيانية غزيرة، تتباين بتباين أصحابها من المفسرين، في المنطلقات والوسائل والأهداف، مثلما هو واضح في نوعية التفاسير، فمنها التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الفقهي، والتفسير الصوفي، والتفسير الموضوعي، والتفسير العلمي، وغيرها...

وعلى هذا الأساس، يمكن رصد أبرز تجليات النظر المنهجي في مجال الدرس التفسيري من خلال تتبع الجهود العلمية فيما صنف من المؤلفات التفسيرية التي تزخر بها المكتبة القرآنية - كما مر -، والتي تشكل حقيقة مستودعا من مستودعات الذات العلمية للأمة، وخزانا من خزانات ذخائر علومها وفنونها، أشبه بدائرة معارف شاملة وموسوعة علمية متكاملة؛ حتى إن الكثير من مقدماتها التمهيدية كتفسير الإمام القرطبي مثلا، وقبله تفسير الإمام الطبري، تحافظ على هذا الطابع المنهجي في أغلبها؛ بل إن هذه المؤلفات تخضع فيما يرتبط بشكلها ومضمونها إلى ضابط منهجي معين، تنتظم به عملية تصنيف مادتها، وطريقة تحرير موضوعاتها، وأسلوب بيان قضاياها، إلى درجة تجعل من هذا الضابط المنهجي مرتكزا من أهم المرتكزات التي يقوم عليها بناء الدرس التفسيري بجميع معطياته للنص القرآني.

وبفعل هذا النظر المنهجي أمكن للمفسرين أن ينسجوا مؤلفاتهم التفسيرية على أنساق وألوان مختلفة، فمنهم من سار على النسق الأثري وآثره على باقي الأنساق التفسيرية الأخرى، ففسر النص القرآني بنصوص القرآن نفسه، أو بالإضافة إلى ما صح رواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام، أو ما أثر عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين؛ ومنهم من اعتمد النسق اللغوي، واعتنى بمعاني "مفردات القرآن"، وشكل ألفاظه وأصولها، وكل ما يتصل بالمباحث اللغوية وقواعدها، لتحليل مبناه وشرح معناه؛ ومنهم من استحسّن النسق الفقهي، ففسر القرآن تفسيرا فقهيًا، قصد استنباط أحكامه وفقه مسائله؛ ومنهم من اختار النسق البياني، وركز على المسائل البلاغية، لإبراز مواضيع الإعجاز في هذا القرآن؛ ومنهم من لجأ فيه إلى المنحى الصوفي، فتتبع معاني عبارات القرآن ودلالات إشاراتها؛ ومنهم من استهواه النسق العلمي، بهدف إظهار ما في القرآني

من آيات الآفاق والأنفس.. وهكذا..³⁷ فلم يلتزم المفسرون في طريقة تعاملهم مع النص القرآني - تبييناً وبياناً - بالسير على وتيرة واحدة، بل سلكت كل مجموعة منهم فيه منهجا معيناً، يطبع إنتاجها ويميزها عن غيرها.

2- الاجتهاد المنهجي ومظاهره في تفسير النص القرآني

ولما تقرّر ثراء النص القرآني كحقيقةٍ مُثلى، بحكم مجال تشريعاته وأحكامه الواسعة، وأفق أسراره وحكمه الشاسعة، ناهيك عن حقيقة صلاحية أحكامه وحكمه لكل زمان ومكان، فإن موضوع الاجتهاد المنهجي في مجال تفسير النص القرآني واقع لا يرتفع - كما يقال -، على الرغم من وفرة مدارس التفسير وتعدد مناهج المفسرين قديماً وحديثاً.

وإذا كان الاجتهاد عموماً أمراً مرغوباً فيه ومطلوباً في كل زمان ومكان، فضلاً عن اعتباره خاصية أساسية تميز العقل البشري في التعامل مع القضايا الفكرية، والمسائل العلمية، شرعية كانت أو غيرها، فإن وضع الدرس العلمي التفسيري للنص القرآني - على تراكم إنتاجه وتنوع مناهجه - أولى بهذا الاجتهاد، لاسيما في النطاق المنهجي الذي يُعنى بالغوص في معاني القرآن الكريم، تطلعاً للكشف عن عمق معانيه، وتيسير سبل الغوص في دقائق نظمه، للنفوذ إلى جوهر مقاصده، خاصة بعدما اضمحلت أسباب الصفاء الذهني والقلبي للفهم التلقائي للنص القرآني في كثير من جوانبه، وما عليه مستوى فهم الأمة للنص القرآني الأصل، ونسبة تفاعلها مع هذا الأصل، الذي يفترض أن تستوعب حقائقه وتدرك مقاصده، ويستقيم السير على هديه، فتصح بذلك تصورات هذه الأمة أفراداً وجماعات، اعتقادية كانت أو سلوكية أو عملية، ليصير هذا الحال بمثابة عامل في تقوية مسار حركة التفسير التي تتطلب اجتهاداً منهجياً على أساس الإبداع والتجديد، بدل التردد والتقليد.

1.2 الدرس التفسيري والتحديات المعاصرة

لا مرأى أن أول ما يلفت النظر في المكتبة التفسيرية هو غنى تراثها - نوعاً من الغنى -، وكثرة ثروتها - ضرباً من الكثرة -³⁸، نتيجة الإقبال المنقطع النظير على الدرس التفسيري قديماً وحديثاً، بتعدد مشارب الدارسين،

³⁷ يقول الدكتور طه جابر العلواني مؤكداً على هذه الحقيقة:

"أما كتب التفسير فهي ذات مشارب مختلفة - كما تقدم -، فمنها ما يشبع القول في مسائل الأحكام والقضايا الفقهية، ومنها ما ينشغل في الدقائق الكلامية، ومنها ما يفيض القول في شؤون البلاغة والبيان والبديع وقضايا النحو واللغات، ومنها الصوفي المنحى في فهم الدقائق وفهم الإشارات، ومنها التفاسير العقلية والتفاسير المذهبية.. إلى غير ذلك من ألوان وأنواع..". محاضرة في موضوع: "الوحدة البنائية للقرآن المجيد".

³⁸ قال الإمام الرمخشري (467-538 هـ) مادحاً لتفسيره، وشاهداً على عصره، خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري من حياته:

إِنَّ التَّفْسِيرَ فِي الدُّنْيَا بِلَا عَدَدٍ * * * وَلَيْسَ فِيهَا لِعُمَرِيِّ مِثْلُ كَشَّافِي
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَى فَالزَّمْ قِرَاءَتَهُ * * * فَالْجُهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَّافُ كَالشَّافِي

نقلا عن طبقات المفسرين: الداودي 316/2.

فما بالناس بما جادت به قرائح علماء التفسير بعد هذا القرن، وإلى حدود يومنا من هذا القرن.

وتنوع مناهجهم، وهذا ادعى للأمان والاطمئنان على النص القرآني الذي هو مصدر الإسلام الأوّل، ودستوره الخالد الذي عليه المعوّل، ويخال معه للنّاظر على أن هذا الحال كفيلاً بإحلال قيم نص القرآن وشريعته مكانتها اللائقة بها في حياة المسلمين وأحوالهم، مع أن واقع الحال هو غير هذا الحال.

وبالفعل، فإن هذا الوضع يشكل في حد ذاته تحدياً كبيراً أمام المشتغلين بالدرس التفسيري، بما يطرحه عامل امتداده التاريخي، وما نجم عن هذا الامتداد على مستوى الإنتاج من الكثرة الكاثرة من المؤلفات التفسيرية ذات الأنساق البيانية المختلفة، الشيء الذي أسهم - بشكل مثير - في تخصيب أرضية الاختلاف بين المفسرين على مستوى الأفهام وطرق البيان، واتساع هوة هذا الخلاف إلى حد الخلاف أحياناً،³⁹ مثلما فتح هذا المشكل كذلك الباب على مصراعيه أمام تعدد الآراء التفسيرية وتكاثرها وتضاربها، وإثارة بعض زوابع التضليل وموجات التشكيك بين الفينة والأخرى، تحت مظلة ادعاء الاجتهاد واستعمال العقل..، وغيرها من مزاعم التفسير بالرأي المذموم،⁴⁰ الذي يتبنى أصحابه خدمة التوجه المذهبي بواسطته، وحماية معتقداتهم وأفكارهم على أساسه، وهذا في حد ذاته تحدٍ آخر يُقجم الدرس التفسيري في زخم الصراع والنزاع بين الثقافات، وأشكال الأنساق الفكرية والمذهبية والتّخلّلات، مما يُججّب الرؤية المنهجية الحقيقية الناجعة والفاعلة في العمل التفسيري.

وفي هذا السياق، وجبت الإشارة إلى أشكال أخرى من التحديات التي ظلّت تعوق حركية الدرس التفسيري بالشكل الطبيعي المرغوب، وتحول دون المشتغلين به إلى التوصل إلى روح القرآن الذي هو جوهر البيان،⁴¹ بما يفيد في التحلي الحقيقي بالإيمان، ويُيسّر السبيل إلى الترقّي في مقامات الإحسان، تماماً كما هو مطلوب من الإنسان المخلوق في عبادته لخالقه الرحمان؛ وفي مقدمة هذه التحديات همّ البحث - على الدوام والاستمرار - عن "...حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل"،⁴² أملاً في العثور على "مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل"،⁴³ و"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"،⁴⁴ من أجل استمداد المعرفة القرآنية الصحيحة، وإعادة بناء الأمة على القاعدة القرآنية الصالحة، التي تُقوّم حياتها، وتوجّه سلوكها، وتُصحّح أفكارها، وتُحلّ مشاكلها، لتتمكن بعد ذلك من القيام بأعباء مهمّتي الاستخلاف والإعمار،

³⁹ استناداً إلى قوله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الخِلافُ شرٌّ" انظر تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة/ ص: 26.

⁴⁰ انظر مبحث محاذير التفسير العقلي من مباحث كتاب "أصول التفسير وقواعده" للدكتور خالد عبد الرحمان العك.

⁴¹ "التفسير القرآني ابتعد عن روح القرآن ومقاصده، فالخاور القرآنيّ بشكل عام لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها لكي يحققها في الحياة".

مقتطف من مدارس علمية بعنوان: "كيف نتعامل مع القرآن" أجزاها الأستاذ عمر عبّيد حسنة مع الشيخ مُجّد الغزالي (1335-1416هـ).

⁴² عبارة أصلها عنوان لمؤلف تفسيري مشهور "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل" للزخشي (467-538هـ).

⁴³ عبارة مقتبسة أيضاً من عنوان مؤلف تفسيري للعلامة أبي الحسن علي بن أحمد الحرّالي التّجّبي المراكشي (ت638هـ)، تقديم وتحقيق:

د. محمادي بن عبد السلام الخياطي أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان سابقاً.

⁴⁴ عبارة مقتبسة أيضاً من عنوان مؤلف تفسيري لأبي السعود مُجّد أفندي الملقب ب"خطيب المفسرين" (896-982هـ).

والتمكن والانتصار، مصداقاً لقول الحق في كتاب الحق: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِبَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ".⁴⁵

وما أشبهه همَّ الزَّمن الحديث بهمَّ الزَّمن الماضي وزيادة، وذلك باستمرار جهد البحث في الدرس التفسيري ومواصلة حركته لفهم مراد الله من كتابه، بُغية الوصول إلى الالتزام بأحكامه وتوجيهاته إيماناً وعملاً ودعوة، وإن كان في ظل واقع متميز ومغاير، يختلف اختلافاً جذرياً عما سبقه من فترات تاريخية وفي جميع المجالات، وخاصة مجال العلوم الشرعية، التي تأسس بنيانها على أرضية "تراثية" صلبة⁴⁶، بدءاً بالقرآن الكريم وحيماً إلهياً ونصاً قديماً، فالسنة النبوية التَّوَام من حيث الخصوصية المصدرية والوظيفية والزمنية، ثم ما أثمرته فرائح العلماء من جهودٍ في كلِّ المعارف الخادمة للقرآن والسنة، وعلى رأس هذه المعارف "الدَّرس التَّفْسيري" الذي "اختفت [منه] لوامع الابتكار، وتوقفت [فيه] بوارق الإبداع، وأفلت [عنه] شمس الاجتهاد"⁴⁷، بسبب ما واجهته الأمة - بعد عَزِّها ومجدها - من ألوان الفتن، وما عانته من مرارة الحزن، فتنٌ شتىً ومحنٌ عدَّة، استحالت معها أوضاعها إلى الشقاء والانتكاسة، والذلِّ والمهانة؛ جرَّاء ما مُنيت به من الهيمنة الاستعمارية، والمؤامرات الخارجية التي استحوذت على أوطانها، ونهبت خيراتها، وزعزعت استقرارها، وعطلت إرادتها، وجمّدت فكرها، ولوثت هويّتها، ليُحكّم على "الدَّرس التَّفْسيري" بتحدٍّ جديد أمام معترك هذه التحولات التي تمخضت عنها قضايا ومشكلات، أبرزها انشغال علماء الأمة⁴⁸ بالبحث عن سبل الانعتاق من رنقة الاستعمار وظلم الغزاة من ناحية، والجِدِّ في محاولة النهوض لإعادة الصورة التاريخية المشرقة للأمة من ناحية أخرى، ليستقر الأمر لديهم - اتفاقاً - على أن يُقاظ الأُمَّة واستنهاضها لن يتحقّق من دون العودة إلى القرآن الكريم والتمسك به⁴⁹،

⁴⁵ سورة النور الآية 55.

⁴⁶ ينظر كتاب الأمة بعنوان: "التُّراث والمعاصرة" للدكتور أكرم ضياء العمري/ص:27، فقد أورد تحقيقاً علمياً معجمياً مَوْصِلاً عن مصطلح "التُّراث"، وبأي معنى يصح إطلاقه على الكتاب والسنة أساساً، رفعا لكلِّ تَوْهمٍ والتباس.

⁴⁷ مقتطف من محاضرة في موضوع: "الوحدة البنائية للقرآن المجيد" للدكتور طه جابر العلواني، وقد سبقَت الإشارة إليها.

⁴⁸ خصصت "علماء الأمة" بالذكر قصداً، لتوثق وشائج ارتباطهم بالقرآن، واقتناعهم بجدوى الاشتغال بتفسيره، دون الإشارة إلى من تبني فكر النهضة بناء على قطع الصلة مع التراث عموماً، كأمثال طه حسين الذي قال: "إنَّ سبيل النهضة واضحةٌ مستقيمةٌ ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرّها، حلوها ومُرّها، وما يُحِبُّ منها وما يُكره، وما يُحْمَدُ منها وما يُعاب". مستقبل الثقافة في مصر - 28/2 صرح السيد جمال الدين الأفغاني: (ت1897/1314م) بهذه الحقيقة قائلاً: "القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية...".

من مقالاته في مجلة العروة الوثقى، والنص منقول من كتاب: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور مُجَدُّ البهي/ص102 ويؤكد الشيخ عبد الحميد بن باديس(ت1940/1359م) على الحقيقة نفسها بقوله: "وإن القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكتر عليه أن يُكوَّن رجالاً في الخلف". مقال بعنوان: "رائد النهضة العلمية والإصلاحية في الجزائر" بقلم د/خالد النجار. 16 أبريل 2015 نشر بالموقع الرسمي مُجَدُّ زنتوت.

وهو الذي "نزل [أساساً] لتوجيه الحياة الإنسانية وإمدادها بوسائل الحماية والارتقاء"،⁵⁰ وباعتباره قاعدة انطلاق المسلمين دائماً لممارسة اجتهادهم، وبناء نظرياتهم، وحلّ مشكلاتهم، والاهتداء به في كل شأن من شؤون حياتهم؛ لاشتماله على حقائق العلوم ومجامعها، ومجمل الشرائع بأكملها وأتمها، كما هو مستفاد من نص الآية الكريمة من قوله تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ"⁵¹؛ والعمدة في هذا كله على "الدّرس التّفسيّري" الذي هو معقّد بيان حقائق القرآن، بيان تدعو الحاجة إليه، و"تتوجّه العناية فيه إلى هداية القرآن، على الوجه الذي يتّفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح".⁵²

وعلى الرغم من تعيين وجهة الانطلاق نحو الانعتاق ثم السّباق، فقد وُضِعَ الدرس التّفسيّري - الذي على أساسه يتحقّق اللّحاق - أمام تحدي "نزعة التجديد والمعاصرة"، التي فرضت نفسها بقوة تحت ضغط المدّ الغربي وتأثيرات أنساقه الثقافية، وما حملته من المستجدات العصرية، وضرورة رجوع العلماء إلى التراث التّفسيّري لمراجعة جهود السابقين وطرائقهم في فهم القرآن وتناول تفسيره، وتخليصه من كل ما يعيق الصلة القوية بين الماضي المشرق والحاضر المقلق، ويضمن مواكبة الدرس التّفسيّري لما طرأ على حياة الأمة من التطورات، وما جد فيها من المتغيرات، ويضطلع باستيعاب مشكلاتها والإجابة عن تساؤلاتها.

ومع الاعتبار لهذه التحديات مجتمعة وغيرها، - وما أكثرها - التي تواجه الدرس التّفسيّري بوصفه واجهة قوية لحركة النهضة المنسجمة مع المرجعية الإسلامية، على أساس قراءة واعية، ومنهج متبصر، من أجل استئناف السير الحضاري، تبرز الحاجة الملحة والقوية إلى البحث الدائم عن المنهج الذي يساعد على الفهم السليم للنص القرآني "بما يبيّن مقاصده ويوضح معانيه، ويكشف اللثام عمّا فيه من كنوز وأسرار، ويفتح مغاليقه للعقول والقلوب".⁵³

2.2 الاجتهاد المنهجي في الدرس التّفسيّري

لقد ظل موضوع "المنهج" والاجتهاد فيه أمراً متساوقاً مع الدرس التّفسيّري على حين من الدهر، منذ فترة نزول النص المفسّر الذي هو القرآن، وعلى امتداد تنزيله إلى اليوم، سعياً وراء الغوص في مراميه، وطلباً لوجه الهداية فيه؛ وما تنوع مدارس التّفسيّر وتعدد مناهج المفسّرين في المشرق الإسلامي ومغربه، بل ومن خارج هذين

⁵⁰ الاتجاهات الفكرية في التّفسيّر: د. الشحات السيد زغلول/المقدمة- ص:4

⁵¹ سورة النحل الآية 89

⁵² مقدمة تفسّر المنار: الشيخ محمّد رشيد رضا-12/1

⁵³ "كيف نتعامل مع القرآن العظيم" الدكتور يوسف القرضاوي/ ص217.

القطرين إلا دليل على الحضور القوي للمنهج في الدرس التفسيري، وارتباطه به ارتباط الروح بالجسد، وحرص العلماء على الاجتهاد في موضوعه، على امتداد خط البيان والبيان لنص القرآن، الذي لا تبلى جدته ولا تنقضي عجائبه.

وإن قوة هذا الارتباط العضوي بين المنهج والدرس التفسيري بتمام فعلها، وتطور مفعولها، راجع إلى طبيعة النص القرآني نفسه، بامتداده، وخلوده، وقدرته على العطاء المتجدد في الزمن والمكان، مثلما أن طبيعة الفهم أيضا للدين الذي أساسه القرآن، هي التي تحول الاجتهاد في النظر المنهجي انطلاقا من الحديث النبوي الشريف المؤسس لهذا العمل التجديدي "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها"⁵⁴، والتجديد - كما هو معلوم - لا يأتي إلا عن طريق الاجتهاد، فهو نتيجة من نتائجه، وثمرة من ثمرات شجرته.

ويكفي الرجوع إلى مقدمات المحررات التفسيرية الموجودة والمتداولة، والتي تحمل في طياتها نفس الاجتهاد المنهجي الذي غالبا ما يعبر عنه المفسرون في مقدمات تفاسيرهم، للوقوف على مدى انشغالهم الكبير بهذا الموضوع إلى حد المكابدة، بقصد إدراك المراد الحقيقي من معاني القرآن، ومحاولة التوصل إلى جوهر دلالاته النقية، مثلما عبر عن ذلك الإمام الفقيه سليمان الطوفي البغدادي (ت716هـ) في مقدمة تفسيره - على سبيل المثال - بقوله: "فإنه لم يزل يتجلجل في صدري إشكال علم التفسير، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أر أحدا منهم كشفه فيما ألفه، ولا نحاه فيما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق، الناكبة عن حجر الطريق، لوضع قانون يعول عليه، ويصار في هذا الفن إليه، فوضعت لذلك صدر هذا الكتاب مردفا له بقواعد نافعة في علم الكتاب، وسميته: الإكسير في قواعد التفسير"⁵⁵، بل إن السعي إلى الاجتهاد المنهجي كان ديدن العلماء المصلحين عبر القرون، كلما بعدت الشقة بين الأمة وكتاب ربها، ووقع لها تحريف في الفهم واعوجاج في سلوكها، إذ تتابع جهده هؤلاء العلماء في هذا السياق في طرائقهم لتناول محتوى النص القرآني، لإمالة اللثام عن سره النوراني، وسعيهم في استرجاع الميراث النبوي، كما هو واضح من كلام السيد جمال الدين الأفغاني، حيث قال: "انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعراجه والوقوف عند بابه دون التخطي إلى محرابه، وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظا ومناقشات حول أحكام فرضية، واستنتاجات ليست في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير مالا يحصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة"⁵⁶.

⁵⁴ رواه أبو داود في سننه: كتاب الملاحم 109/4

⁵⁵ مقدمة الإكسير في قواعد التفسير/ص27

⁵⁶ نقلا عن خاطرات جمال الدين الأفغاني: مُجَدِّدُ الْمُخْرُومِي/ص98.99

وإذا كان الاجتهاد أمراً مرغوباً فيه في كل زمان ومكان، ومظهرها بارزاً من مظاهر مرونة الإسلام، ووسيلة من وسائل مسابته للعصر، ومواكبته للحياة المتطورة المتجددة، فإن الدرس التفسيري أحوج إلى ذلك من غيره، لأنه محور كل تجديد لفهم الدين، لاسيما في بداية القرن العشرين، زمن تجدد ابتلاء الأمة بالمدنية الحديثة الغربية التي أفرزت مشكلات وأزمات، وخلقت أرضية خصبة لمعترك التحولات، حيث كان لزاماً على دعاة النهضة لتجديد أمر الدين، وإصلاح أحوال المسلمين، العكوف على "الدرس التفسيري" بنظر منهجي جديد، يلائم تحولات العصر ومستجداته ومتطلباته، حيث "أشرفت بشروق شمس [هذا القرن] شمس المناهج التفسيرية للقرآن الكريم بما فيها من حق وبما فيها من باطل"⁵⁷ فتجلى هذا الفتح المنهجي الفريد في كثرة المؤلفات التفسيرية⁵⁸ بتنوع أساليبها، وتطور مناهجها، واتساع دائرتها، لتشمل كافة أبعاد الحقل التفسيري، بتعدد اتجاهاته⁵⁹ التي فاقت كل التوقعات، نتيجة ما لحّصه الشيخ محمد رشيد رضا بقوله: (فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه إليه العناية الأولى إلى هداية القرآن، وعلى الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح... ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير، ومراعاة أفهام صنوف القارئ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها).⁶⁰

ولازالت هذه الدعوة المباركة مستمرة في منظور متجدد على أيدي بعض العلماء الذين يحملون هموم الأمة، ويسعون في بناء جيل فريد يعول عليه في استرجاع الإرث الضائع من هذه الأمة، أمثال الأستاذ فتح الله كولن الذي يقول: "على الناس أن يجتهدوا في تفسير القرآن كل خمس وعشرين سنة"⁶¹ والدكتور الشاهد البوشيخي - حفظه الله -⁶² الذي يقول: "لقد صار تجديد بنیان الأمة فريضة لتعود، وصار تجديد كيان الأمة ضرورة لتتقد، ولا سبيل إلى شيء من ذلك بغير تجديد فهم الأمة للقرآن... وما لم يتجدد فهم الأمة للقرآن فلن تتجدد الأمة، ولن يتجدد فهم القرآن حتى يتجدد فهم مصطلحات القرآن، مفاهيم ونسقا" لذلك وجب تجديد الفهم، من أجل تجديد العمل، من أجل تحسين الحال".⁶³

⁵⁷ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: أ.د. فهد بن سليمان الرومي/ص9، والقوله من أولها في سياقها: "ولعل بزوغ شمس القرن الرابع عشر الهجري نفت في روح هذه المناهج الحياة من جديد - بعد أن فترت حيناً من الدهر - بما جاء به من وسائل وأدوات حديثة، تعين على الاطلاع وتساعد على الانتشار".

⁵⁸ تشير بعض الإحصائيات في هذا الحقل، أن عدد ما كتب من تفاسير في كل قرن كان يتراوح بين 25 إلى 35 تفسيراً، فيما يناهز عدد التفاسير الهامة التي أنتجها هذا القرن 60 تفسيراً.

⁵⁹ كالاتجاه الإصلاحية، والاتجاه الإجمالي، والاتجاه التحليلي، والاتجاه الموضوعي، والاتجاه العلمي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه التفسيري البياني، والاتجاه المذهبي، والاتجاه الإعجاز الرقمي، والاتجاه التفسير المقارن، والاتجاه الاستشراقي،...؛ ينظر كتاب التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي (الخاتمة... كلمة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث).

⁶⁰ تفسير المنار: 10/1.

⁶¹ فلسفة جديدة لفهم القرآن الكريم: د. عبد المجيد بوشبكة/ص51

⁶² مبدع منهج الدراسة المصطلحية وهو "لون منهجي بدعي في التفسير، يمثل رؤية جديدة ومتكاملة ومغايرة، تقوم أساساً على نوع جديد من علاقة المفسر بالنص، وعلى توسيع الدائرة المرجعية التي ينبغي أن يعتمد عليها المفسر في فهم النص، بعيداً عن النمطية".

⁶³ القرآن الكريم والدراسة المصطلحية: الدكتور الشاهد البوشيخي ص: 18-19

3- خاتمة:

ومع ما تقدم من البيانات والإيضاحات عن ثراء المجال المنهجي وإغناء آفاقه في حقل الدرس التفسيري، لاسيما في العصر الراهن، من تطور مساره، وتنامي رصيده، واتساع مجاله، وامتداد أفاقه، فإن المقصود الأساسي من الاشتغال به لم يتحقق -بعد- في حياة الأمة وواقعها على النحو الذي أريد به ولّه، وذلك بربط الأمة - أفرادا وجماعات - بنص القرآن ربطا محكما، على أساس فهمه فهما يفني بحسن تدبر آياته ومعانيه، لحمل الأنفس على شرعته ومنهاجه، بتمثل تعاليمه وهداياته، مسارا وسلوكا، في كل المناحي وكافة المستويات؛ وتفاعل الأرواح مع هذا القرآن فيما يأخذون وفيما يتكون، على غرار ما كان عليه حال الرعيل الأول من صدر أمة القرآن، الذي عاش حياته بعيدا عن التكفير والتطرف، والجحود والتخلف.

لذا، ألقت نظر الباحثين الناشئين على الخصوص، إلى وضع هذه القضية العلمية⁶⁴ في بؤرة اهتمامهم العلمي، ليولوا جهود بحوثهم شطرها، وليرعوها حق رعايتها، باعتبار وظيفتها التفسيرية البناءة، وقيمتها البيانية الوضّاءة؛ لاسيما وأن "الأمة اليوم -وهي تستشرف غدا جديدا- مدعوة إلى الوقوف عند تراثها التفسيري، بجهود صادقة مخلصّة لاستخلاص أصول هذا العلم من مصادره، وتخليصه مما التبس به، وتصنيفه، وتكميل بنائه، ليصير علما ضابطا لبيان القرآن الكريم من الفهم السليم حتى الاستنباط السليم"⁶⁵، وهذا هو الطريق القويم الهادي إلى الصراط المستقيم.

والله المستعان%

⁶⁴ "مناهج تفسير القرآن الكريم": تاريخها، قواعدها، مصادرها، أقسامها، مدارسها، أعلامها، مؤلفاتها، تطورها، آفاقها...

⁶⁵ مقتطف من نص ديباجة ورقة "المؤتمر العالمي للباحثين في القرآن الكريم وعلومه" الذي نظّمته مؤسسة البحوث والدراسات العالمية (مبدع) في مدينة فاس المغربية في الفترة 22.21.2019 جمادى الآخر 1436هـ، الموافق 11.10.98 ميل 2015م تحت عنوان: "بناء علم أصول التفسير: الواقع والآفاق".

قائمة المصادر والمراجع:

- ✓ النص القرآني برواية الإمام ورش عن نافع
- ✓ النص الحديثي النبوي الشريف
- الاتجاهات الفكرية في التفسير: د. الشحات السيد زغلول الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية ط2/1977م
- التفسير و المفسرون: مُجَّد حسين الذهبي، ط2/1976م (بدون)
- تفسير القرآن الحكيم (المنار): الشيخ مُجَّد رشيد رضا/ درا المعرفة، بيروت - ط2
- الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي/ تحقيق مُجَّد بن أبي الفضل - ط3/1980م. دار الفكر، بيروت
- أصول التفسير وقواعده: الدكتور خالد عبد الرحمن العك/ دار النفائس - بيروت - ط2/1986م
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: القاضي ناصر الدين عبد الله البيضاوي(ت 691هـ)/دار إحياء التراث العربي - بيروت
- بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار آيات الطريق: للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله/منشورات ألوان مغربية ط1/2002م
- تأويل مختلف الحديث: عبد الله بن قتيبة الدينوري/ مكتبة كردستان العلمية مصر ط1/1326هـ
- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة شرحه ونشره السيد أحمد صقر/ دار التراث القاهرة-ط2. 1973م
- التُّراث والمعاصرة: الدكتور أكرم ضياء العمري- (كتاب الأمة)/شعبان1405هـ
- جامع البيان: أبو جعفر بن جرير الطبري/ دار الفكر بيروت - 1988م
- خاطرات جمال الدين الأفغاني: مُجَّد المخزومي/ ط1-1931م بيروت
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات من كتاب الله العزيز:الإسكافي/دار الآفاق الجديدة- بيروت 1979م
- طبقات المفسرين: الحافظ شمس الدين مُجَّد بن علي الداوودي المالكي(ت 945هـ)/ دار الكتب العلمية-بيروت
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي للدكتور مُجَّد البهي/طبعة دار الفكر بيروت 1973م
- فلسفة جديدة لفهم القرآن الكريم: د. عبد المجيد بوشبكة/(منشورات عالم التربية) مطبعة النجاح-ط1/2015م
- القرآن الكريم روح الأمة: للدكتور الشاهد البوشيخي/نشر بمجلة الهدى ع 2-1992م
- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني: مُجَّد أركون/ دار الطليعة للطباعة والنشر - ط2/2005م
- القرآن الكريم والدراسة المصطلحية: الدكتور الشاهد البوشيخي(رقم 4)/سلسلة دراسات مصطلحية التي يصدرها معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة أنفو برانت فاس2002م
- كيف نتعامل مع القرآن: أجزاها الأستاذ عمر عبيد حسنة مع الشيخ مُجَّد الغزالي/1335- 1416هـ
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم: الدكتور يوسف القرضاوي/دار الشروق بيروت. ط1- 1419هـ/1999م
- المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي(ت 546م)/تحقيق عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية-لبنان ط1/ 1993م
- مستقبل الثقافة في مصر: طه حسين/الدار العربية للنشر والتوزيع - القاهرة
- مفهوم النص: د. نصر حامد أبو زيد/ المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- ط5/2000م
- مقدمة في أصول التفسير: الشيخ أحمد بن تيمية/تحقيق فريال علوان- دار الفكر اللبناني- ط1/1992م
- الموافقات في أصول الشريعة:الشاطبي/دار الفكر العربي بدون تاريخ عني بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه ذ. مُجَّد عبد الله دراز
- نظرية الترتيل في القرآن المجيد : الدكتور أحمد عبادي/ (مقال) نشر بمجلة رسالة القرآن/ع2_س 2005م